مجلة سيميائيات
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973
المجلد: 19 العدد:02/ سبتمبر2024
ص: 86 - 101

الجهود التَّنظيريَّة للنَّقد السِّيميائي عند " عبد الملك مرتاض "
(قراءة في المنجز النَّقدي بين الإبداع والاتِّباع)

(The theoretical efforts of semioticism according to (Abdul Malik Murtad)
A reading of the critical achievement between creativity and adherence)

مرسلي فـايزة *[1]، المشرف : بوصـوري ناصـر [2] ، المشرف المساعد : منَّـادي محمَّد الحبيـب [3]
[1] المركز الجامعي آفلو (مخبر اللسانيَّات وتكنولوجيا التَّعليم وقضايا الأمن اللغوي)(الجزائر)،
(f-morsli@cu-aflou.edu.dz)
[2] المركز الجامعي آفلو (الجزائر)، (n.boussouri@cu-aflou.edu.dz)
[3] المركز الجامعي آفلو (الجزائر)، (m.menadi@cu-aflou.edu.dz)

تاريخ الإرسال: 2024/06/20	تاريخ القبول:2024/09/15	تاريخ النشر: 2024/09/30

****

ملخَّص :

تزخر ساحة النَّقد الجزائري بزخمٍ متعدِّدٍ من مناهج تحليل الخطاب، التي تسعى لاستكناه بواطن النَّصّ الأدبي، وتتفاضل هذه المناهج فيما بينها بحسب تنوّعها وتنوُّع تركيبة العمليَّة النَّقديَّة المتشكِّلة من النَّاقد، والعمل الأدبي، والمنهج، ويستمدُّ كلُّ منهج مصداقيَّته من قُدرته على استنطاق النُّصوص وإخراج مكنوناتها وأسرارها، وذلك فق الخطوات الإجرائيَّة المحدَّدة لكلّ منهج. وقد كان للنَّاقد عبد الملك مرتاض - رحمه الله – اهتمامٌ بالغٌ بالمناهج النَّقديَّة وكيفيَّة تطبيقها على النُّصوص الأدبيَّة (السَّرديّ منها والشِّعريّ...)، وقد خصَّص أغلب مقدِّمات كتبه ودراساته النَّقديَّة للحديث عن إشكالات المناهج المتبنَّاةِ في التَّحليل الأدبي، وعيًا منه بأهميَّة المنهج وخطورته معاً في الدَّرس الأدبيّ. كما عرفت مسيرته النَّقديَّة تنوُّعاً جَمّاً في اختياراته المنهجيَّة واستعمال أدواته الإجرائيَّة، التي قامت على تتبُّع الدّراسات الأدبيَّة العربيَّة قديمها والحديث، وتتبُّع المناهج النَّقديَّة الحديثة، يُحيّن بها ما تقادَم من أدواته المنهجيَّة ويُساير منها ما استجدَّ، حيث بدأ مساره النَّقدي بالمنهج الانطباعيّ فالمنهج التَّاريخي، ثمَّ تحوَّل منهما إلى البنيويّ فالأسلوبيّ ليستقرَّ ناقداً سيميائيًّا تفكيكيًّا ...

وعلى ضوء هذا التنوُّع المنهجي في تبنِّي هذه المناهج والتَّنظير لها والبيان لآليَّات تطبيقها على النَّصّ الأدبي، فضلاً عن الدَّعوة إلى تحيينها ومراجعتها يأتي بحثُنا هذا ليبحث في التَّحوُّلات المنهجيَّة في التَّجربة النَّقديَّة لعبد الملك مرتاض، ونطرح من خلاله الإشكاليَّتين الآتيتين: - ما هي مظاهر التَّغيُّر المنهجيّ في التَّجربة النَّقديَّة لعبد الملك مرتاض؟

- وما هي أسباب التَّعدُّد المنهجيّ عنده في تحليله للخطاب الأدبي؟

الكلمات المفتاحيَّة : النَّقد، المنهج، البنويَّة، السِّيمائيَّة، عبد الملك مرتاض.

ABSTRACT **:**

The Algerian critical arena has competing approaches to analyzing discourse She learns the truth about the literary text They differ with regard to the diversity of the components of the critical process consisting of the various (critic, literary work, and method), Each method gains its credibility from the extent of its ability to read texts and extract their secrets. This is done through specific procedural steps. The critic "Abdul Malik Murtad" - may God have mercy on him - knew of an existing interest in critical methods and their application to literary texts (narrative and poetic...), He often devoted the introductions to his critical studies to talking about the problems of methods in literary analysis. Because it teaches you the lessons and participation together in literary studies, His critical path began with children historically, then structural style, then semiotics to analyze interest. In light of this diversity in adopting approaches, theorizing on them, applying them to literary texts, and reviewing them... Our research seeks to examine the common transformations in the critical experience of "Abdul Malik Murtad." Through it, he raised the following two problems: 1 - What are the manifestations of practical change in the critical experience of "Abdul Malik Artad"? - What are the reasons for his methodological diversity in analyzing literary discourse?

Keywords**: Criticism, Term, Semantics, Abdul Malik Murtad.**

الجهود التَّنظيريَّة للنَّقد السِّيميائي عندعبد الملك مرتاض-(قراءة في المنجز النَّقدي بين الإبداع والاتِّباع).

مقدّمة :

تتجسَّد حقيقة المناهج النَّقديَّة المعاصرة في كونها وسائل مساعدة على سبر خبايا الظَّاهرة الأدبيَّة وليست غايةً في حدِّ ذاتها، ففي المبتدأ كان الخطاب الأدبي ثمَّ كانت بعده الممارسة النَّقديَّة، التي لازمته في المبتدأ والمنتهى وتطوَّرت إلى مناهج النَّقد المتنوّعة سياقيَّةً كانت هذه المناهج أو نصَّانيَّة ، وذلك من خلال استظهار مقصديَّة الكاتب، واستقصاء تجلّيات الخطاب الأدبي، واستقراء الظَّواهر الفنيَّة، المتوارية ضمن الفضاء النَّصيّ، والكامنة داخل العمل الأدبي. ومن أبرز هذه المناهج وأجلاها المنهج الانطباعي، والمنهج البنوي، والمنهج السِّيمائي، والمنهج الأسلوبي، والمنهج التَّاريخي، والمنهج التَّفكيكي، والمنهج التَّداولي، والمنهج التَّكاملي... وغيرها من المناهج، التي كانت جُلُّها محلَّ عناية النَّاقد عبد الملك مرتاض - رحمه الله – وموضع اهتمامه، وأحد أبرز أدواته الإجرائيَّة في تشريح النصّ وكشف خباياه، مع تحفُّظه على جُلِّ هذه المناهج ورفضه للكثير منها، وذلك حَدَّ الدَّعوة إلى رفضِ بعضها، كرفضه المنهجَ النَّفسيَّ وانتقاداته له، فضلاً عن سعيه الدَّائب والحثيث للتَّأسيس لمنهجٍ نقديٍّ جزائري، تتَّضح معالمه الإجرائيَّة، وتستبين أركانه التَّطبيقيَّة، ويكون المنهج الأنْسَبَ لدراسة النَّصّ الأدبي وتحليل الخطاب، فيكون له به فضل السَّبق وسبقُ التَّأسيس.

وتتظافر جُلُّ الأبحاث والدِّراسات التي تناولت المادَّة النَّقديَّة الجزائريَّة قبل عام (1961 م) على أنَّها محاولات نزِرة العدّ فقيرة الجدوى، لا تكاد تخرُج عن حدود أسوار الكتابات الفرديَّة التي لا يجمعها مشروعٌ واضح في التَّأسيس للنَّقد في الجزائر، فقد جاءت هذه المحاولات في شكل مقالات مبتسرة، يعوزها التَّصوُّر النَّظري وينقصها الإطار المنهجي، وهي مقالات متناثرة على صفحات بعض الصُّحف وثنايا بعض المجلات، كان يدبّجها جِلَّةٌ من الكتَّاب الجزائريّين، ومنهم : رمضان حمود وأحمد رضا حوحو ومحمد البشير الإبراهيمي ومحمَّد السَّعيد الزَّاهري وابن باديس وعبد الوهَّاب بن منصور وحمزة بوكوشة وبن ذياب أحمد، وغيرهم من الكتَّاب والأدباء والمشايخ، الذين لم يُعرف عن أحدٍ منهم اشتغاله بالنَّقد أو اتِّخاذه له صنعةً [(1)] .

وكان لهؤلاء - وغيرهم - مساهماتهم النَّقديَّة المتواضعة ضمن تجارُب شخصيَّة أملَتْهَا عليهم طبيعة تكوينهم الأكاديمي أو اهتماماتهم البحثيَّة التي تنحو منحىً أدبيّاً يسعى لاستكناه بواطن النَّصّ الأدبي، مع السَّعي لتفكيك الخطاب، واستخراج دلالاته وإدراك غاياته ومعانيه ... إلا أنَّ البدايات الحقيقيَّة التي يُمكن اعتبارها مبتدأً للتَّأسيس لمنهج نقدي في الجزائر إنَّما كانت بُعيد استقلال الجزائر، أي عَقِب سنة (1962 م) ، وفي هذا يعتبر " يوسف وغليسي " أنَّ السِّتينيَّات من القرن الماضي كانت هي البداية الحقَّة للنَّقد المنهجي في الجزائر، واعتبر كتاب أبي القاسم سعد الله الذي كتبه حول شعر محمَّد العيد « هو الباكورة الأولى للخطاب النَّقدي الجزائري الذي أخذ يتطوَّر ويتجدَّد بعد الاستقلال (1992 م) » [(2)] . وعرف النَّقد الجزائري سُبُلاً مختلفة،

توزَّعت فيها المناهج بحسب مقتضيات كلّ عقدٍ زمني ، فكانت سيادة النَّقد التَّاريخي في فترة الستّينات، ثمَّ عرف النَّقد الاجتماعي السِّيادة في السَّبعينات، حين كانت الاشتراكيَّة في ذروتها، ليسود بعد ذلك النَّقد اللساني – بمختلف أشكاله – فترة الثَّمانينات، وذلك حتَّى يومنا هذا « في حين تخلَّلت هذه المراحل مناهج أخرى لم تستغرق إلَّا حيّزاً نقديًّا محدوداً جدًّا كالنَّقد النَّفساني والنَّقد الموضوعاتي والنَّقد المقارن ... » [3] .

وقد عرفت مسيرة عبد الملك مرتاض النَّقديَّة مُسايرة لتطوُّر النَّقد الجزائري ، وشهدت مسيرته هذه تنوُّعاً كبيراً في اختياراته المنهجيَّة وأدواته الإجرائيَّة، فتبنَّى - خلال هذه المسيرة - ما استجدَّ من المناهج يُحيِّنُها بتحيينها، ويُراجعها بمراجعة منظِّريها لها، ويعمل على الإضافة إليها والتَّنظير لها والبيان لها والتَّغيير، والعمل بآليَّاتها والتَّطوير، مجرِّباً لها على النَّصّ الأدبي، وقد تجلَّى هذا التنوُّع في كونه بدأ مساره النَّقدي باختيار الانطباعيَّة منهجاً يُوافق ما كان عليه من انطباعات ذاتيَّةٍ على النُّصوص ، ثمَّ تحوَّل ناقداً تاريخيًّا يبحث في النَّصّ بمعيَّة الزَّمن ونفض التَّاريخ، ثمَّ انتقل بنيويًّا فأسلوبيًّا، ليستقرَّ به المقام في آخر تجربته سيميائيًّا تفكيكيًّا ... ولسان حاله يقول: لا معرفة حقيقيَّة تتحقَّقُ دون منهج، كما لا يعدُو المنهج في حقيقته أن يكون: وسيلة بحث يسترشد به الباحث للوُصول إلى غايته المحدَّدة وأهدافه المقرَّرة. ويتمثَّل لُباب هذه الغاية في البحث عن الحقيقة. وهذا التَّغيُّر المنهجي الذي عرفته مسيرة عبد الملك مرتاض النَّقديَّة هو موضوع بحثنا هذا، نسعى من خلاله لتِبيان مراحل تلك التَّغيُّرات المنهجيَّة التي اكتَسَت تجربة عبد الملك مرتاض النَّقديَّة، ونرصُد - من خلالها - مجمل مسيرته النَّقديَّة، وما تجلَّت فيه من الدِّراسات النَّظريَّة منها والتَّطبيقيَّة . مع بياننا لمظاهر هذا التَّغيُّر المنهجي وتعيين أسبابه ودوافعه، ونطرح من خلاله الإشكاليَّتين الآتيتين:

- ما هي مظاهر التَّغيُّر المنهجيّ في المسيرة النَّقديَّة لعبد الملك مرتاض؟

- وما هي أسباب التَّعدُّد المنهجيّ عنده في تحليل الخطاب الأدبي؟

ويهدف البحث في إجابته عن هذين التَّساؤلين إلى رصد المسيرة النَّقديَّة لعبد الملك مرتاض ، وبيان المناهج المعتمدة عنده في دراساته المتعدِّدة من خلال استقراء جُملة من كتاباته النَّقديَّة . مع بيان الأسباب التي حملته على تغيير مناهجه وأدواته الإجرائيَّة في تحليل النُّصوص الأدبيَّة (الشِّعريَّة منها والنَّثريَّة).

أوَّلاً: رصد المسيرة النَّقديَّة لعبد الملك مرتاض :

ألَّف عبد الملك مرتاض - رحمه الله - العديد من الكُتُب النَّقديَّة ، وهي لا شكَّ تحمل بَصَمات توجُّهاته الفكريَّة في مسيرته النَّقديَّة، وتعكسُ اختياراتُه المنهجيَّة - كأدوات للتَّحليل الأدبي - التَّوجُّهَ المنهجيَّ الذي كان يتبنَّاه، وما تُمليه عليه اهتماماته من جهة وواقع ما يقوم به من تحليل وما تموج به السَّاحة من مناهج من جهةٍ أخرى، ويُمكن إجمال التَّوجُّه المنهجي العام عنده بانتقال من ساحة المناهج السِّياقيَّة إلى باحة المناهج النَّصَّانيَّة، والتي امتدَّت في بعض مؤلَّفاته من سنة (1981م) - تاريخ صُدور كتابه المعنون بـ(الخصائص الشَّكليَّة للشِّعر الجزائري الحديث) – إلى سنة (1990م) تاريخ صُدور كتابه المعنون بـ(القصَّة الجزائريَّة المعاصرة)، وهي مجموع المؤلَّفات التي شقَّ بها عبد الملك مرتاض مرحلةً جديدة مع المناهج النصَّانيَّة الحديثة على أنقاض ما كان يستعين به من المناهج السِّياقيَّة التي كفر بها بعد ذلك.

ويُضاف لهذه الكتب ما دبَّجه يراعه من كتبٍ أخرى ومقالات نظَّر فيها وناظر، وشارك فيها في النَّدوات وحاضَر، وسعى إلى التّأسيس لأصول منهجه النَّقديّ وبادر، وكان في كلّ هذا ينتقل من منهج لآخر، فيتعمد منهجاً حيناً وينقدُه حيناً آخر، ويُصحِّح مسارات مؤسِّسيه أو يُجاريهم فيه. ويُضاف إلى هذه المؤلَّفات - أيضاً - سعيه فيها إلى السَّبق والتميُّز والطُّموح إلى تأسيس منهجٍ نقديّ جزائري، يتحقَّق به إكمال المسيرة النَّقديَّة التُّراثيَّة في امتدادها العلمي، وفي هذا الطُّموح يطرحُ - بتشوُّفٍ للتَّحقيق – أسئلةً تسير على خطى الأجداد فيقول: « وإذن، أفلم يأنِ لنا أن نطمح إلى أن يكون لنا نقدٌ نحن أيضاً، كما لأجدادنا الأكرمين أحسنَ الله إليهم وإن حقَّ لنا أن نطمح، فمتى يتحقَّق لنا ذلك؟ وهل سيتحقَّق...حقًّا » [4] .

ويُشير عمَّار بن زايد في كتابه الذي خصَّصه لدراسة (النَّقد الجزائري الحديث) إلى أهميَّة المناهج النَّقديَّة في الدِّراسات الأدبيَّة باعتبارها وسائل للنَّاقد يتناول في ضوئها الأعمال الإبداعيَّة ويستخلص نتائجها، كما يؤكّد أنَّه قد وقفَ في تتبعه للدِّراسات

النَّقديَّة الأولى في الجزائر على مناهج ثلاثة ، المنهج التَّاريخي والمنهج التَّأثُّري والمنهج الفنِّي [5] . وهو ما انعكس تطبيقاً في التَّجربة النَّقديَّة الأولى لعبد الملك مرتاض، إذ إنَّ المتتبّع لدراساته الأولى يلفيه يتناولها ببعض التَّاريخيَّة، راصداً نشأتها أو تطوُّرها علاوة على بعض الآراء الانطباعيَّة والذَّاتيَّة التي تبرز فيها خلجات نفسه وتتجلَّى فيها ذاتيَّته وذوقه الخاصّ، ممَّا أسَّس لمسيرة عبد الملك مرتاض النَّقديَّة، ويُجمل يوسف وغليسي ما مرَّ به عبد الملك مرتاض من المراحل المنهجيَّة النَّقديَّة القديمة ممَّا صنع مساره النَّقدي في ثلاث مراحل هي (مرحلة الإقرار، فمرحلة النَّفيوالرَّفض، فمرحلة الاضطراب)، إذ تتميَّز المرحلة الأولى بإقراره بمعياريَّة العمليَّة النَّقديَّة وممارسته للنَّقد ضمن الأطُر السِّياقيَّة، أمَّا المرحلة الثَّانية وهي (مرحلة النَّفي)، فقد وجَّه فيها سهام نقده لنبذ الأحكام النَّقديَّة، وعدم اعتبارها منهجاً سليماً في النَّقد، ليدخل بعد المرحلتين السَّابقتين في مرحلة الاضطراب المنهجي، أين تجلَّت بعض تناقُضاته المنهجيَّة بين ما يرفضه من حكمٍ نظريّ، وما يُمارسه واقعاً إجرائيّاً على مدوَّناته المختارة [6] .

وهذه المراحل – على اختلافها - تُجسّد - في عمومها - الاضطرابَ المنهجيَّ الذي شهدته تجربة عبد الملك مرتاض، مع بيانه وتوضيحه لأسباب تبنِّي كلّ منهج عند تطبيقه وكشفه لملابسات ذلك، وفيما يأتي من البحث عرضٌ لجوانب من هذا التَّحوُّل المنهجي عنده، نتلوه ببيان بعض الأسباب الدَّافعة لهذا التَّحوُّل، الذي لم يكُن يعدو حُدودَ التَّجريب المنهجي بما يتلاءم وطبيعة النَّصّ وما تفرضه مستجدَّات السَّاحة النَّقديَّة العالميَّة والعربيَّة بله السَّاحة النَّقديَّة المحلّيَّة القُطريَّة، التي كان أحد المؤسِّسين لها والفاعلين فيها تنظيراً وتطبيقاً. فالنَّقد عند عبد الملك مرتاض لا يمثِّل جمالاً عقليّاً ولا فنيّاً فحسب، وإنَّما هو في برزخٍ وسطي بين علم الفلسفة وفلسفة العلم يخلطُ هذا كلَّه بلمسته الفنّيَّة ولغته الأدبيَّة الخاصَّة، ممَّا يجعله على حافَّة كلّ هذه الحقول دون أن يكون متلبِّساً بأحدها صراحةً ... فلمَّا كان النَّصّ الأدبي لا يكشف عن مكنوناته إلا حين قراءَتِهِ، كان من اللازم البدء بها (أي القراءة) لأنَّها المحرِّك الأساس للدِّراسة النَّقديَّة بما يكون من الاعتماد على النَّصّ الأدبي، الذي بدوره يُمثِّل تأثيراً محتملاً يتمّ التَّوصُّل إليه بفعل القراءة [7] .

1 - التَّجريب النَّقدي للمنهج الانطباعي :

لا تكاد تخلو دراسةٌ نقديَّة من فِكاك النَّقد الانطباعي، إذ يبدأ ذلك من حدود الاختيار المنهجي لموضوع البحث أو مدوَّنته المدروسة، والذي يكون غالباً من منطلق تأثُّرٍ مبدئي بالنَّصّ المختار يحمل على اعتباره مستحقّاً للنَّقد، ولا يُمكن أن يكون هذا الاختيار إلى بدافعٍ من انطباعات أوَّلية ذاتيَّة تعتملُ في نفس النَّاقد وتُثيره للعمل في هذا الموضوع دون سواه، ومن هذا المنطلق فقد كان المنهج الانطباعي هو الأساس في الكثير من الدِّراسات النَّقديَّة قبل أن تَجُبَّهُ المناهج الأخرى التَّالية له، إذ تقوم الانطباعيَّة على « أن يعيد الفنَّان أو الأديب الانطباع أو الأثر الذي حصل في نفسه كما أحسَّ به، وفي الفنّ أن يُعيد الرَّسَّام أو النَّحَّات الانطباع الذي تركه فيه مشهدٌ من مشاهد الطَّبيعة أو منظر من مناظر المجتمع. أمَّا في الأدب: أن يعيد الشَّاعر أو الكاتب الانطباع في شكلٍ من أشكال الإنشاء، وكذلك في النَّقد الأدبي: أن يعيد النَّاقد الانطباع أو الأثر الذي تركه في نفس قراءة نصّ أو سماع قصيدة » [8] .

وقد أدَّت مشاعيَّة الانطباعيَّة في أواخر القرن التَّاسع عشر للميلاد إلى علوّ مكانة النَّقد الانطباعي في مقابل تراجع موجات التَّأييد للنَّقد الموضوعي، فأثبت النَّقد الانطباعي - بذلك - جدارته لما أسهم به من الكشف عن المتعة الذَّاتيَّة المتوارية خلف قراءته وإدراك التَّذوُّق الجمالي، الثَّاوي في ثنايا ألفاظه، وهذا دون الاعتماد على معايير وقوانين تقيِّد من حريَّة النَّاقد، أو تمنعه من هذا الانطباع ، وهذه - في الحقيقة - هي صميم عمل النَّاقد الانطباعي الذي « يُركِّز على أسئلة يثيرها العمل عند قراءته ويحرِّك بداخله بعض الأسئلة: ما علاقة هذه الشَّخصيَّة بي وما الذي تمثِّله لي، وهل حقيقي استمتعت بقراءة أو مشاهدة هذا العمل وهل حقَّق لي اللذَّة...»[9]. وهذا المنحى الانطباعي لما تتركه آثار العمل الأدبي في نفس عبد الملك مرتاض هو ما كان يدفعه لاختيار عملٍ بعينه دون سواه من مجموع أعمال أدبيَّة كثيرة لتكون محلّ اهتمامه ودراسته الأدبيَّة. وذاتيَّةُ عبد الملك مرتاض التي تكاد تكون أبرز ما في كتاباته، هي ما يتقاطع مع الانطباعيَّة في تعريفها، إذ يُعرِّفها وغليسي بأنَّها: « نقدٌ ذاتيٌّ غايته إبراز صورة الأثر الانعكاسي للنَّصّ على النَّاقد، يقوم أساساً على الذَّوق الفردي بوصفه منطلقاً مباشراً لالتقاط التَّموُّجات الجماليَّة للنَّصّ في كيفيَّة انعكاسها على الذَّات النَّاقدة، مع تجاوز المعايير المتعارف عليها، وإسقاط الوساطة الموضوعيَّة بين النَّصّ والنَّاقد،

وعدم التزام النَّاقد بتبرير الأحكام المجملة التي يفضي بها »[10]. وهذا أمرٌ في غاية الوُضوح، ولا تكادُ تخطئه العين في الدّراسات الأولى لعبد الملك مرتاض حتَّى بعد تخلِّيه عن هذا المنهج وانتقاده له.

ويرى بعض الباحثين أنَّ الأساس في كلّ عملٍ نقدي إنَّما هو الأثر الانطباعيّ الذي يرتسم في نفس النَّاقد، ولا شيء غير ذلك، وفي هذا يرى - جول لوماتر - أنَّ النَّقد الأدبي يتوقَّفُ حصراً على الانطباعيَّة دون سواها من المناهج النَّقديَّة الأخرى، وذلك من خلال مقال يقول فيه: « النَّقد الأدبي لا يكون إلَّا انطباعياً »[11] . ولم يكُن عبد الملك مرتاض بمنأىً عن التّأثُّر بالمنهج الانطباعي والارتكان إلى أحكامه في تحليلاته للخطاب الأدبي، بل يُمكن الجزم أنَّه أوَّل ما عرف من المناهج وأوَّل ما طبَّقه منها، فـ « لقد استهلَّ مرتاض مشواره النَّقديّ، منذ بداية الستِّينيات، ناقداً انطباعيًّا (وإن لم يصدع بذلك)، وكان كتابه: (القصَّة في الأدب العربي القديم)، وشيء من كتابه: (نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر) حصاداً مبكّراً وسريعاً لهذا الاستهلال»[12] . ويختصُّ منهجه هذا بخصائص نوردها من خلال بحثه حول (القصَّة في الأدب العربي القديم)، إذ اعتمد إثبات الشَّواهد إن كانت بأسلوبه الخاصّ أو بإنشائه نصّاً موازياً إن كان الشَّاهد نثراً، وبعد عمليَّة التَّحليل تأتي مرحلة الدِّراسة، والتي تعتريها مجموعة من الأحكام الانطباعيَّة المطلقة[13] . فشكَّلت هذه الخصائص العامَّة الهيكل العام لتطبيق منهجه النَّقدي الانطباعي على ما يختاره من النُّصوص، مع سعيٍ منه دائم إلى بيان أسبقيَّته في التَّحليل واجتراحه للمصطلحات التي يسعى بها للتفرُّد والتَّميُّز ... وتتجلَّى أحكامه الانطباعيَّة في عباراته النَّقديَّة التي تنحو منحىً أدبيّاً صرفاً يُظهر بها أحاسيسه ومدى تأثُّره بروعة ما يُحسُّ به من تلك النُّصوص دون توضيحٍ موضوعيٍّ لأسُس هذا التَّأثُّر.

وفيما يسمح به مقام هذا المقال نذكر هنا بعض هذه أحكامه الانطباعيَّة التي يظهر من خلاله انتحاؤه هذا السَّبيل من النَّقد في بداياتها الأولى: ففي قصَّة قيس لبنى، يعتبر عبد الملك مرتاض - رحمه الله - أنَّ: « شعر ابن ذريح يفيض حُبّاً، ويتفجَّر تهياماً، وينبجس لوعةً وصبابةً، وندماً وحنيناً. كأنَّ أبياته بل كأنَّ ألفاظه كُتبت بمداد الحُزن واللهفة والنَّحيب »[14] . فهذا وصفٌ انطباعيٌّ واضحٌ لما أحسَّه من شعر ابن ذُريح، وهو نقدٌ لا يتأسَّس إلا على ما يشعر به النَّاقد، وبما يُخلِّفه ذلك الشِّعر من أحاسيس في وجدانه، دون أن يُحدِّد الأسس الموضوعيَّة التي دفعت بتلك الانطباعات أن ترتسم في ذاته ويُضيف في هذه الأوصاف التي يتجلَّى فيها الانطباع الصِّرف في وصفٍ أدبي واضح فيقول: « فحروف أبياته كأنَّها دُموع غِزار تتساقط، أو كأنَّها سِهام تُمضي فتُصيب كلَّ من صادفت منه جانباً. فهو يصطنع جميع ما يُمكن أن يُوجد في العربيَّة من ألفاظ الحُزن والحسرة واللهفة والحرمان... »[15]. فهذه أحكام تبتعد عن الموضوعيَّة في الوقت الذي تدنو فيه من الانطباع الذَّاتي الواضح ، وفي قصَّة جميل بُثينة، يصف عبد الملك مرتاض بائيَّة جميل بقوله: « ومن عجيب الأمر أنّي لم أَرَ قصيدةً تُؤاخي هذه بحراً ورويّاً، إلاّ وهي خطيرةُ القيمة »[16] . فيُصدِرُ بهذا حُكماً عامّاً أشبه بالقانون لما لا يُسعفه واقع الحال على تأكيده موضوعيّاً.

غير أنَّ هذا الاهتمام بالمنهج الانطباعي الذي تجلَّى بوضوح في العديد من بواكير دراساته النَّقديَّة لم يُشبع جذوة التَّفكير النَّقدي عنده، ولم يروِ عطشه المنهجي فانتقل إلى سواه من المناهج، إذ بعد دراسته حول القصَّة والتَّأريخ لها في الأدب القديم بدأت « تخبو جذوة هذه الرُّوح الانطباعيَّة المشتعلة شيئاً فشيئاً؛ حيث لا نلمس لها إلَّا بعض الآثار القليلة الموزَّعة عبر كتابه اللاحق (نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر)»[17]. وما لبث أنْ حاد عنه، وراح ينعت ممارسيه بالظُّلم والعدوان ويصف الانطباعيّين من النقَّاد الكلاسيكيّين بالتعصُّب وأنَّهم: « يتسلَّطون ظُلماً وعدواناً على المؤلّف، فيزعجونه بالترَّهات طوراً ويُطرونه بالمدح طوراً، ويقذفونه بالتَّجريح والقدح طوراً آخر دون أن يلتفَّتوا، أو يكادوا يلتفَّتون، إلى النَّصّ »[18] . ورغم هذا النَّقد اللاذع للانطباعيّين إلَّا أنَّه مارس - بعد ذلك - أحكاماً انطباعيَّةً على النُّصوص التي درسها إبَّان دعوته إلى نبذ الحكم النَّقدي ... مما يعكس اضطرابه المنهجي في سعيه لامتلاك المنهج العلمي الذي يتجاوز به حدود الانطباعيَّة إلى باحة الأحكام العلميَّة الدَّقيقة.

2 – التَّجريب النَّقدي للمنهج التَّاريخي :

شكَّل وعيُ الإنسان بالزَّمن وأهميَّة التَّاريخ في التَّسلسل الفكري والنُّشوء والارتقاء الرَّافدَ الأوَّل في اعتماد المنهج التَّاريخي منهجاً في البحث والدِّراسة، ويُعدُّ المنهج التَّاريخي أوَّل المناهج النَّقديَّة السِّياقيَّة ظهوراً في الدَّرس النَّقدي العربي الحديث، ولم يكن النقَّاد الجزائريُّون بمنأى عن استعمال هذا المنهج في دراساتهم الأكاديميَّة، تأثُّراً برموز النَّقد المشرقي، فالنَّقد التَّاريخي في

الجزائر ازدهر في فترة الستّينات على يد أبي القاسم سعد الله، وعبد الله الرّكيبي، وعبد الملك مرتاض ، وغيرهم من النقَّاد الذين أبدو تأثُّرهم بأيقونات المنهج التَّاريخي المشرقي كسهير القلماوي، وعمر الدّسوقي، وشكري فيصل ... وغيرهم ، ممَّن يصفهم وغليسي بأنَّهم :« كانوا مؤطّرين لرسائل نقَّادنا، وكان طبيعياً أن يوجّهوهم وجهة تاريخيَّة » [19] ، ويتجلَّى اعتماد عبد الملك مرتاض على المنهج التَّاريخي في ثلاثة كُتب، عكست تبنِّيه لهذا المنهج عند دراسته، وهو ما تفرضه عناوينها حين تأريخه لنهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925 – 1954 م)، والتَّأصيل لفنّ المقامات في الأدب العربي، وتوسيع المجال في عرض فنون النَّثر الأدبي في الجزائر في الفترة الممتدَّة من سنة 1931 إلى سنة 1954م .

وسعة مدوَّنة البحث في هذه الدِّراسات النَّقديَّة يتَّضح في لاحقة الفنّ المدروس بالقول (في الأدب العربي / في الجزائر)، وما يُضيفه بعد هذه اللاحقة من ضبطٍ لفترة الدِّراسة المختارة ، حيث تمتدُّ [هذه الكتب] على فترة تاريخيَّة مطوَّلة لا تقلُّ عن عشرين سنة، من جهة كما أنَّ الفاصلة التَّاريخيَّة بين زمن تلك المتون وزمن دراستها لا تقلُّ - في أحسن الأحوال- عن خمسة عشرة سنة، من جهة أخرى. وهي إحدى سنن النَّقد التَّاريخي الذي يأبى دراسة النُّصوص المتزامنة مع النَّاقد، ولا يقوى على ذلك ما لم تدخل تلك النُّصوص متحف (تاريخ الأدب) ! [20] .

وشكَّلت متون هذه الكتب الثَّلاثة المسار العلمي الأكاديمي لعبد الملك مرتاض في بدايات تلقِّيه، فكانت باكورة عمله الأكاديمي من الليسانس فالماجستير وحتَّى الدُّكتوراه، وتجلَّى من خلالها اهتمامه بالمنهج التَّاريخي والتّأريخ للأدب العربي، ورصد بداياته، فقد تتبَّع في كتابه (نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر)، الإرهاصات الأولى للنَّهضة الأدبيَّة في الجزائر وفق تسلسل تاريخي محكم، وسعى من خلال رصده التَّاريخي لبيان معالم الأدب الجزائري في هذه الفترة الممتدَّة من 1925م إلى غاية 1954م سعياً منه للوُصُول للحقيقة التَّاريخيَّة لوضع الأدب الجزائري موضوعه اللائق به من تاريخ النَّهضة الفكريَّة والأدبيَّة.

وخصَّص بعد هذا الجهد رسالته في الماجستير لتتبُّع (فنّ المقامة) ليتجسَّد في دراسة كبيرة حملت عنوان: (فنّ المقامات في الأدب العربي)، وقد تحصَّل بها على شهادة الماجستير سنة 1970م من جامعة الجزائر، وعالج في بحثه هذا فنّ المقامات وتطوُّرها عبر عصور تاريخ الأدب العربي، وطيلة قرونٍ ممتدَّة ، بتفصيلٍ دقيق، وتتبُّع تاريخي حثيث مراعياً في ذلك أُطُرَ المنهج التَّاريخي بمراعاته للتَّسلسل الزَّمني لها، والممتدّ على فترة طويلة (عشرة قرون) تحديداً، مع البحث في خصائصها الفنيَّة، بدراستها دراسةً فنيَّة بلاغيَّة، فكانت هذه الدِّراسة مما يعكس بشكلٍ واضح اهتمام عبد الملك مرتاض بالمنهج التَّاريخي، وإدراكه لأهميَّته في توثيق البدايات الأولى للظَّاهرة محلّ بحثه وعنايته، كاهتمامه بالمقامة في هذا المقام.

واستمرَّ وفاءُ عبد الملك مرتاض للمنهج التَّاريخي إلى غاية حُصوله على أطروحة الدُّكتوراه، التي وسَّع فيها المجال ليشمل فنون النَّثر الأدبي المختلفة في الجزائر ضمن فترةٍ زمنيَّة محدَّدة ومقصودة التَّواريخ، فكانت أطروحته موسومة بـ (فنون النَّثر الأدبي في الجزائر 1931 – 1954م)، ويتَّضح - بتحديد المجال الزَّمني لهذه الدِّراسة، والممتدّ من سنة 1931م إلى غاية سنة 1954م دلالة هذين التَّاريخين ورمزيَّتهما عنده، وتفرض الأطروحة أهميَّة اعتماده المنهجَ التَّاريخي، الذي ترجع بعض أسباب اعتماده إلى التّأطير التي تولاه مشرفه، إذ أشرف عليها المستشرق الفرنسي آندري ميكائيل، وتمَّت مناقشتها بجامعة السُّربون سنة 1983م، كما ترجع إلى طبيعة الدِّراسة ذاتها، ويُوجز يوسف وغليسي امتدادها التَّاريخي بالقول : إنَّها أطروحةٌ « تعالج مرحلة النَّهضة الوطنيَّة في الجزائر وهي تبتدئ ببداية ظهور [جمعيَّة] العلماء سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف، وتمتدّ إلى اندلاع ثورة التَّحرير في عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف ... » [21] . هدفت هذه الدِّراسة إلى الإلمام بالأنواع الأدبيَّة المختلفة، والتي ظهرت في العقد الرَّابع من القرن الماضي بالجزائر، والمتمثِّلة في :(فنّ المقالة، الفنّ القصصي، حركة التَّأليف، الفنّ المسرحي، الخطابة، المذكِّرات والسِّيرة الذَّاتيَّة، والرَّسائل، ويرى وغليسي أنَّ أطروحة عبد الملك مرتاض - رحمه الله - : « تهيمن عليها روح تاريخيَّة بيِّنة: فقد وقف أوَّل باب منه بسط تاريخي سياقي للحياة العامَّة آنذاك (في تمفصلاتها السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة والثَّقافيَّة)» [22] .

3 – التَّجريب النَّقدي للمنهج البنوي :

شهد المنهج البنيوي احتفاءً كبيراً من قبل النقَّاد في دراساتهم النَّقديَّة بحثاً منهم عن موضوعيَّة النَّتائج التي يقتضيها هذا المنهج، ردّاً بذلك على الأحكام الانطباعيَّة التي سيطرت على الكثير من الدِّراسات النَّقديَّة، دون أن يكون لها أساسٌ تُبرَّر به تلك النَّتائج أو تحتكم إليه عند الخُصومة، وصارت البنويَّة موضةً منهجيَّةً جديدة في المناهج عند الغربيّين، قبل أن تصل لوثتها إلى العرب بالتَّرجمة والمثاقفة، ويرى جون ستروك أنَّ « البنيويَّة لم تظهر فجأة في باريس، وما حدث في باريس في الستّينات هو أنَّ هذه المعرفة العاديَّة تحوَّلت بقدرة قادر إلى شعار اتَّخذه بعض النَّاس ووجدوه أمراً مثيراً فخلقوا منه موضة فكريَّة شاعت شيوعاً تجاوز حدود المعقول » [23] .

ويكاد يُجمع الدَّارسون بلهَ المؤرّخون للحركة النَّقديَّة بالجزائر على ريادة عبد الملك مرتاض - رحمه الله - للبنيويَّة وما بعدها في الخطاب النَّقدي الجزائري، ولم ينصبَّ خلافهم في هذا إلا على تحديد اسم الدِّراسة بالذَّات التي يُمكن اعتبارها أساس المنطلق التَّاريخي لهذه الرِّيادة، وقد ذهب أحمد شريبط في قراءته البانوراميَّة لـ(النَّصّ النَّقدي الجزائري من الانطباعيَّة إلى التَّفكيكيَّة) إلى التّأريخ لمرحلةٍ جديدة في النَّقد بسنة 1983 م على أساس أنَّها السَّنة التي ظهر فيها كتاب مرتاض (النَّصّ الأدبي، من أين؟ وإلى أين؟) رغم ظهور دراسات سابقة له صادرة سنة 1982 م [24].

وقد عرفَ نَقلُ مصطلحِ (structure) إلى اللغة العربيَّة في دراسات الباحثين والنقَّاد العرب اختلافاً بيّناً، محاولةً منهم لوضع مصطلحٍ دقيقٍ لهذا الأصل المترجم، إذ نجده يُقابَل بمصطلح (تركيب) أو (بنية) عند محمد علي الخوليّ ، ويُقابَل بمصطلح (الهيكل) عند النَّاقد عبد السّلام المسدّي ،وكذا سمير المرزوقي ، وعند غيرهما أيضاً كجميل شاكر وحسين الواد ، ويُترجم أيضاً بـ(البنيان) عند جوزيف ميشال شريم... وهكذا تعدَّدت التَّرجمات لهذا المصطلح الواحد كُلٌّ بحسب ما استلهمه منه، وارتاح له، واستقرَّ الأمر على مصطلح (البنيويَّة) ، الذي شاع في الأوساط النَّقديَّة وفي مؤلَّفات الباحثين والأكاديميّين، وكان لعبد الملك مرتاض اعتراضٌ على هذه البنية (البنيويَّة) في صيغتها، ورآها مخالفةً لأصول العربيَّة في بنائها الصَّرفي، وردَّ ما ذهب إليه النقَّاد من استخدامهم لمصطلح (البنيويَّة) عوض (البنويَّة) ، لما رآه من أنَّ صيغة البنيويَّة لا تتَّفق - بهذا الشَّكل - مع قواعد اللغة العربيَّة، ذلك أنَّ الكلمات التي جاءت على شكل بِنية، مثل لفظ قرية، إذا أضيفت إليه ياء النِّسبة تُحذَف منه تاؤه، فيصير اللفظ (قريي)، ثمَّ تُقْلَبُ الياء الأصليَّة واواً تخفيفاً ، فنقول (قروي) نسبة إلى القرية ، وقياساً على هذه القاعدة الصَّرفيَّة، فالنّسبة إلى (بنية) تنتج عنها كلمة (بنوي) حيث حُذِفت تاء التَّأنيث، واحتلَّت مكانها ياء النِّسبة، وقلبت ياؤها واواً تخفيفاً، ولكن في لفظ (بنيويّة) المتداول بين جموع النقَّاد العرب، حُذفت تاءُ التَّأنيث منه وأخذت مكانها ياء النّسبة، والياء الأصليَّة قُلِبت واواً تخفيفاً، وهذا كلُّه يوافق القاعدة اللغويَّة، ولكن الياء المفتوحة التي قبل (الواو) زائدةٌ ولا أصل لها، وفي هذا مخالفةٌ صريحةٌ لما ترتضيه قواعد اللغة العربيَّة، وهي مخالفةٌ مشينة، ليس لصُدُورها من رجال الإعلام والصَّحافة، الذين يجعلون وُكْدَهم الأوَّل والأخير الحصولَ على المعلومة، ونشرها دون مبالاة بموافقتها لقواعد اللغة العربيَّة أو مخالفتها لها، ولكنَّ الخطأ اقترفه من يتولَّون أمور اللغة العربيَّة حفظاً وتدريساً ودفاعاً عن حياضها من مجموع الأساتذة والباحثين الجامعيّين .

وقد عاب عبد الملك مرتاض على النقَّاد العرب سعيهم لتقليد الغرب وهرولتهم في استيراد النَّظريَّات النَّقديَّة الغربيَّة عموماً، ومصطلحاتها خُصوصاً ، دون اكتراث لسلامة اللغة العربيَّة، وقواعدها، وردَّ بذلك ما شاع عند النقَّاد في تبرير اختيارهم للمصطلح بشُيوعه، فيكون الخطأ الشَّائع عندهم خيراً من الصَّواب المهجور، ورأى أنَّ هذا لا يستقيم أن يكون حُجَّةً في تبرير الخطأ ليبقى - مهما برَّروه - خطأً وأنَّ الصَّواب فيما اختاره من بنية سليمة هي (البِنَوِيَّة) ، وردَّ على النَّقَّاد بقوله: « أمَّا الذين سيقولون : إنَّ الخطأ إذا شاع أمسى استعماله حجَّة، فإنَّا نُجيبهم، إنَّ الخطأ لا يكون حجَّة لأهل الخطأ أبداً، وإذا أصرَّ طائفة من النَّاس على ارتكاب أخطاء بعينها في قانون السَّير فلن يستطيعوا فرض أخطائهم على العالم بتغيير القوانين الصَّائبة، وإحلال محلِّها القوانين الخاطئة، إنَّ الخطأ يظلّ دائماً خطأ، ولا سيَّما إذا كان صادراً عن أهل المعرفة، ومن هو أعرف معرفةً من النقَّاد » [25].

4 – التَّجريب النَّقدي للمنهج الأسلوبيّ :

عانَت الأسلوبيَّة صعوبةً في تحديد مفهومها الاصطلاحي وضبط تعريفها الإجرائي، فتنوَّعت بذلك أشكال الدِّراسة الأسلوبيَّة عند النقَّاد العرب بين من يعتمد مستويات اللغة في التَّحليل الأسلوبي لمعرفة سمات الكاتب في نصِّه بتتبُّع مستويات الصَّوت، والصَّرف، والتَّركيب، والدّلالة ، وبين مُعتمِدٍ على سماتٍ محدَّدةٍ في التَّحليل الأسلوبي وأهمُّها (الاختيار، والتَّركيب والانزياح)، بالإضافة إلى ما كان من مزاوجة الأسلوبيَّة بالإحصاء في الأسلوبيَّة الإحصائيَّة التي ساهمت في تحديد أنماط الأساليب واعتمادها في تحقيق نسبة النُّصوص إلى أصحابها، ومعرفة صعوبة هذه الأساليب أو بساطتها، بل وصل الأمر إلى حدّ وضع معادلات رياضيَّة لبيان دقَّة المنهج الأسلوبي كمعادلة (يول)، ومعادلة (بوزيمان) وغيرهما، وزاد في هذه الصُّعوبة تعدُّد طرائق البحث الأسلوبي عند الغربيين منذ نشأته على يد دوسوسير وشارل بالي، الذي أسَّس للأسلوبيَّة، بوضع كتابه مبحث في الأسلوبيَّة الفرنسيَّة (Traité de stylistique française) عام 1909 م، حيث « ابتداءً من هذا التَّاريخ بدأ الاهتمام بالدِّراسات الأسلوبيَّة يتزايد شيئاً فشيئاً مهتدياً بالمعطيات العلميَّة الألسنيَّة، ومتقاطعاً مع حُدود علميَّة أخرى، كالبلاغة وفقه اللغة والنَّقد الأدبي وعلم العلامات، حيث ظهرت - بعد بالي - طائفةٌ من الأسلوبيّين الذين اشتقُّوا لأنفسهم طُرُقاً واتّجاهات ضمن هذا العلم الجديد، راكمت البحث الأسلوبي وأثرته برؤى معرفيَّة ومنهجيَّة جديدة... » [26].

وقد تجلَّت اهتمامات عبد الملك مرتاض بالمنهج الأسلوبي -كغيره من النقَّاد - يدرسه ويُدرِّس به، ويُحلِّل به ويُحلِّله هو ذاته ناقداً لدراسات بعض من سبقه من الكتَّاب والباحثين، وكان يرى أنَّ الأسلوبيَّة هي: « علم معرفة الأسلوب؛ الأسلوب؛ أي علم بيداغوجيَّة الحديث الذي يوجّهه واحدٌ منَّا إلى النَّاس مكتوباً، أو منطوقاً » [27] . فيرى أنَّ الأسلوب في المنطلق هو طريقة معيَّنةٌ في الحديث، وتجاوز بهذا التَّعريف إلى حُدود الإجراء، إذ زاوَج بين الأسلوبيَّة والبنويَّة في دراسته للأمثال الشَّعبيَّة الجزائريَّة، وهذا ما وقف عليه وغليسي في حديثه عن دراسة عبد الملك مرتاض للأمثال الشَّعبيَّة في كتابه (الأمثال الشَّعبيَّة الجزائريَّة (تحليل لمجموعة من الأمثال الزِّراعيَّة والاقتصاديَّة)) بقوله : « اللافت للنَّظر في هذه المحاولة التَّجريبيَّة الأولى، هو أنَّ تطبيق المنهج البنيوي لا ينسحب على الدِّراسة من أَلِفِها إلى يائها، وإنَّما يتجلَّى - فقط- في القسم الثَّاني من الكتاب، الذي يعالج (الشَّكل الفنِّي للألغاز الشَّعبيَّة) والذي ينصبُّ على دراسة لغة الألغاز وأسلوبها دراسة تراوح بين البنيوية والأسلوبيَّة... » [28] .

وبعد هذا التّطواف والتّجوال بين مناهج النَّقد الأدبي المختلفة، التي اتَّخذها عبد الملك مرتاض مطيَّةً له للوُصول إلى أبعاد النصّ المترامية وعُدَّة له في تشريح الخطاب وتحليله، استقرَّ به الأمر على المنهج السِّيميائي، فكان أبرز المناهج تطبيقاً في دراساته المختلفة (الشِّعريَّة منها والنَّثريَّة)، وبات يُصنَّف ضمن روَّاد النَّقد السِّيميائي في الجزائر، وفيما يأتي عرض لهذه التّجربة النَّقدية.

5 – التَّجريب النَّقدي للمنهج السِّيميائي :

عرفت السِّيميائيَّات اهتماماً بالغاً من قبل الباحثين على اختلاف تخصُّصاتهم العلميَّة، وذلك لاتّساع مجالها المعرفي الذي يشمل حقولاً معرفيَّة متعدِّدة، وتأتي البحوث اللغويَّة في مقدِّمة هذه المعارف وفي ذروة سنامها، وقد أثبتت السِّيميائيَّات قُدرتها المنهجيَّة على تحليل مختلف النُّصوص لاعتبار اللغة في ذاتها علامةً سيميائيَّة، مما جعلها في مقدِّمة المناهج المعتمدة عند النقَّاد لطواعيَّتها الإجرائيَّة، وحُضورها الدَّائم، في كلّ النُّصوص من منطلق ما أشرنا إليه منذ حين من اعتبار اللغة ذات بعدٍ سيميائيٍ في الأساس، لتستوعب بذلك اهتمام الكثير من النقَّاد في العالم العربي، وكذا النقَّاد على السَّاحة الجزائريَّة. ويأتي عبد الملك مرتاض في مقدِّمة النقَّاد الجزائريّين الذين أوْلَوا السِّيميائيَّات الاهتمام البالغ، والعناية اللازمة، فانعكس ذلك على مجموع دراساته وبحوثه النَّقديَّة، تنظيراً وتطبيقاً .

وقد انطلق دوسوسير في رؤيته السِّيميائيَّة من فكرةٍ مفادُها أنَّ المشكل اللساني هو سيميائي قبل كلّ شيء. ممَّا يجعل نظريَّته في مقدِّمة الدِّراسات السِّيميائيَّة جنباً إلى جنب مع دراسة بيرس الذي يُعدّ مؤسِّساً للسِّيميائيَّة وواضعاً لاسمها، لتتتالى بعدهما الدِّراسات السِّيميائيَّة، وتنتشر في أكثر من بلد ، أينَ أخذت الجمعيَّات العلميَّة تُعنى بهذا العلم، وترسِّخ مبادئه ، ولعلَّ أقدم هذه الجمعيَّات: (الجمعيَّة الدَّوليَّة للدّراسات السّيميائيَّة(1969 م)): (International Association for Semiotic Studies) ، التي تعكس تسميتها اتِّساع مجال الدَّرس السِّيميائي ليغدو عالميّاً. وتشعُّب موضوعات السِّيميائيَّة وتناولها لمختلف أشكال العلامات،

وتقاطعها مع الكثير من المجالات هو ما حمل الكثيرين على الاهتمام بها، فاعتمدت السّيميائيَّات منهجاً في دراسة مختلف العلامات التي شملت، العلامات التي يستعملها الحيوان، والنَّبات، والأزياء، بل تعدَّى ذلك إلى الاتّصال ما بين الخلايا الحيَّة في اتّصالاتها الحيويَّة وسماتها التَّفاعليَّة، ليصل مجال السّيميائيَّات في عصر الاتّصال فيشمل الآلات في عصر الذَّكاء الاصطناعي، حيث أصبح للآلات رموزها وأشكال تواصلها، بل وسيميائيَّتها الخاصَّة. فتجاوزت الدّلالات السّيميائيَّة حدود الكائن الحيّ لتشمل كلّ شيء تقريباً، فلا يخلو شيءٌ من دلالة، ومن أجمل الأمثلة وأطرفها على النَّموذج السّيميائي المعتمد على استخدام ألوان البطّيخ كسلاح إبَّان الانتفاضة الفلسطينيَّة « فمن المعروف أنَّه كان من المحظور على الفلسطينيّين رفع العلم الفلسطيني، وكانت القوَّات الإسرائيليَّة تقبض على أيّ فلسطيني يفعل ذلك . فكان الفلسطينيُّون في غزّة، حينما تمرُّ عليهم قافلة عسكريَّة إسرائيليَّة، يأتون ببطّيخة ويقطعونها ويرفعون نصفها. وألوان البطّيخة هي ذاتها ألوان العلم الفلسطيني (أخضر وأحمر وأسود). ولم يكُن بمقدور القوَّات الإسرائيليَّة أن تقبض على الفلسطيني بتُهمة قطع البطيخ وإلاَّ أصبحت أضحوكة العالم، رغم أنَّ عمليَّة قطع البطّيخ أكثر عُمقاً في رمزيَّتها النِّضاليَّة من مجرَّد رفع العلم (فالسكّين الذي يقطع يُذكّر الجندي الإسرائيلي بما لا يُحبّ) » [29] .

وقد شكَّل المنهج السّيميائي مُستقرَّ عبد الملك مرتاض المنهجِي، ومحَطَّ رحله النَّقدي، إذ يتجلَّى هذا في كثرة ما أولاه من العناية في كتبه ومقالاته التي اتَّخذت من المنهج السّيميائي منهجاً إجرائيّاً، حاول التَّجديد في مصطلحاته والتَّنظير لمعالمه الإجرائيَّة، وقد تحدَّدت معالم الاتّجاه السّيميائي لدى عبد الملك مرتاض منذُ أواخر الثَّمانينات، من خلال عددٍ معتبر من الدّراسات النَّقديَّة النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة، التي غلب عليها الإجراء والتَّطبيق فيما يظهر في عناوينها من قبيل ، ألفاظ : تحليل سيمائي، ودراسة سيميائيَّة، ومعالجة سيميائيَّة ... وغيرها من العبارات التي تشِي بالاهتمام وتهدف للتَّطبيق، وقد زاوج في أغلبها بين المنهج السّيميائي وغيره، اقتناعاً منه بجدوى المنهج التَّكاملي، ومن هذه المؤلَّفات على سبيل التَّمثيل:

1 - ألف ليلة وليلة (تحليل سيمائي تفكيكي لرواية حمَّال بغداد) 1989 م .

2 - ألف – ياء (دراسة سيميائيَّة تفكيكيَّة لقصيدة "أين ليلاي" لمحمَّد العيد) 1992 م .

3 - تحليل الخطاب السَّردي (معالجة تفكيكيَّة سيميائيَّة مركَّبة لرواية " زقاق المدق ") 1995 م .

4 - السَّبع المعلَّقات (تحليل أنتروبولوجي سيمائي لشعريَّة نصوصها) 1999 م .

5 - نظام الخطاب القرآني (تحليل سيمائي مركَّب لسورة الرَّحمن) 2001 م .

6 - التَّحليل السّيمائي للخطاب الشّعري (تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي) 2001 م .

7 - رحلة نحو المستحيل (تحليل سيمائي مركَّب لقصيدة " رحلة المراحل " لسعد الحميدين) 2007 م .

8 - (شعريَّة القصّ وسيمائيَّة النَّصّ " تحليل مجهري لمجموعة تفَّاحة الدُّخول إلى الجنَّة ") 2014 م .

وكما هو واضح في تتبُّع عناوين هذه الكتب والدّراسات يظهر اعتماد المنهج السّيميائي في عنوان الكتاب بشكلّ يتحدَّد معه المنهج المعتمد في حين يذكره في المؤلَّفات الأخرى ببيان ما ارتضاه من نهجه العام يُطبّق من خلال بعض جزئيَّات المنهج السّيميائي أو يتناول المنهج ذاته بالنَّقد والمحاورة والتَّصحيح والتَّعديل ... ومن ذلك نقده لمصطلح السّيميائيَّة في صيغته هذه وبيان مخالفة بنيته الصَّرفيَّة لما تعرفه اللغة العربيَّة وما ترتضيه قواعد اللسان العربي ، ووضع بديلاً عنه مصطلح السّيمائيَّة.

ويُشير عبد الملك مرتاض إلى إيجابيَّات التَّحليل السّيميائي من حيث كونه فضاءً واسعاً وحرّاً قائلاً: « الأروع في السّيمائيَّة أنَّك تستطيع أن تَتَسَمْيَأ وحدك وأنت منغمس في إجراءاتها العامَّة (...) دون أن يجعلك ذلك مخالفاً عنها، أو مشاكهاً في الوقت نفسه، لسوائك في ممارستك لها، بحيث قد يمكن أن يكون لكلّ محلِّل كُفء سيمائيَّته الخاصَّة له (...) دون أن يكون ذلك خروجاً عن تأسيساتها العامَّة » [30] . ويوضّح هذا المقال جنوح الكاتب نحو التَّحليل السّيمائي باعتباره إجراءً طيّعاً قابلاً للتَّعدُّد والتَّنوُّع، ويفتح إمكانيَّة تعدُّد أشكال المنهج السّيميائيَّة بتعدُّد الباحثين فيها،دون أن يخرج عن أصل وضعه، مع حفاظ النَّاقد على رؤية التَّركيب بينه وبين مناهج أخرى. ويُعدُّ كتابه (ألف - ياء) البداية الأولى للإنتاج التَّطبيقي في ميدان الدّراسات النَّقديَّة الحديثة التي

اعتمد فيها المنهج السِّيميائي، ويشكّل جزءاً من مشروع نقدي ضخم، ونقلة نوعيَّة في التَّأسيس الفعلي للاتّجاه السِّيميائي والتَّفكيكي [31].

ثانياً : مظاهر التَّغيُّر المنهجيّ في المسيرة النَّقديَّة لعبد الملك مرتاض :

من خلال ما تمَّ عرضه في القسم الأوَّل من هذا المقال، الذي رصدنا فيه المسيرة النَّقديَّة لعبد الملك مرتاض، وعرضنا من خلالها أهمَّ المحطات المنهجيَّة التي مرَّ بها في مسيرته النَّقديَّة، والتي توزَّعت بين المناهج السِّياقيَّة والنَّسقيَّة بحسب ما تفرضه النُّصوص المختارة وسياقات الكتابات ومقامات التلقِّي المنهجي، ففي المناهج السِّياقيَّة لاحظنا تأثُّر عبد الملك مرتاض بالمنهج الانطباعي، والمنهج التَّاريخي، وما كان لهما من السَّطوة على تفكيره المنهجي وكتاباته النَّقديَّة، ومؤلَّفاته العلميَّة، كما أخذ بنصيبه الوافر من المناهج النَّصانيَّة ، والتي مزج فيها بين المنهج البنيوي والمنهج الأسلوبي ، كما مزج بين المنهج السِّيميائي والمنهج التَّفكيكي، واعتمد المنهج السِّيميائي محطَّةً من محطَّاته الكبرى التي عرف بها ناقداً، وأسَّس لها نقداً، جمع فيه بين التَّنظير والتَّطبيق.

وأبرز مظاهر التَّغيُّر المنهجي الذي عرفته تجربة عبد الملك مرتاض النَّقديَّة، ما كان من تحوُّله عن موقفه الانطباعي ونقده اللاذع لمن اعتمده من النَّقَّاد، حتَّى وصل به إلى حدّ نعتهم بالتَّسلُّط والعدوان، ووصفِ أعمالهم النَّقديَّة بالبُعد عن حقيقة التَّفاعل مع النَّصّ، بقوله إنَّ : « الكلاسيكيّين الانطباعيّين المتعصِّبين الذين يتسلَّطون ظُلماً وعدواناً على المؤلّف ، فيزعجونه بالترَّهات طوراً ويُطرونه بالمدح طوراً، ويقذفونه بالتَّجريح والقدح طوراً آخر دون أن يلتفَّتوا، أو يكادوا يلتفَّتون، إلى النَّصّ » [32] . وهذا القول يعكس أحد مظاهر التَّغيُّر المنهجي الذي لم يكُن باتّاً ليقينه بعدم التَّخلّي المطلق عن الأحكام الانطباعيَّة، ولأنَّه مارس أحكاماً انطباعيَّةً على نصوص مختلفة في الوقت الذي دعا فيه غيره إلى نبذ الحكم الانطباعي...

ولعلَّ سبب التَّحوُّل من المنهج الانطباعي إلى التَّاريخي ما فرضته عليه الدِّراسة الأكاديميَّة، في حصوله على (الماجستير والدُّكتوراه) تحديداً، إلا أنَّ اعتماده المنهج التَّاريخي وتطبيقه على الكثير من النُّصوص لم يدم أيضاً لما تعرَّض له المنهج التَّاريخي من الانتقادات، إذ لم يسلم منذ نشأته من هجوم المعارضين له، لما رأوهُ فيه من قُصور ينفي عنه إمكانيَّة الاعتماد عليه وحده، وكان من أبرز هذه المآخذ على هذا المنهج التَّاريخي : قلَّة اهتمامه بالنَّصّ الأدبي من داخله، وكثرة اهتمامه بأشياء خارجة عن النَّصّ كسيرة مؤلِّفه، وملابسات تأليفه، وبيئته، وغير ذلك فيما يصبُّ خارج اهتمامات النَّصّ، وبذلك لا يكشف عن خباياه، وبنيته اللغويَّة ، وخصوصيَّاته[33] .

كما أنَّ طموح عبد الملك مرتاض الذي كان لا يرى في نفسه مجرَّد مؤرّخ للأدب بل ساعٍ إلى التَّأسيس لمنهج نقديٍّ جزائري هو ما حمله على الانتقال من هذا المنهج إلى غيره، فطُغيان التَّاريخ على العمل الأدبي، يحول النَّاقد إلى مؤرّخ يعمل على جمع معلومات المؤلّف من سيرته، وملابسات تأليفه، وعصره، وبيئته أكثر من كونه دارساً أدبيّاً مكتشفاً لجماليَّات النَّصّ، ومبيّناً لخصائصه اللغويَّة والشّعوريَّة والبلاغيَّة، فيغدو نقد العمل الأدبي تاريخاً أكثر منه فنّاً متميّزاً [34] . حيث يتعامل المنهج التَّاريخي مع الأعمال الأدبيَّة على أنَّها : « مخطوطات بحاجة إلى توثيق، أو تُحَف مجهولة في متحفٍ أثري، مع محاولة لمّ شتاتها وتأكيدها بالوثائق والصُّور والفهارس والملاحق»[35] . وهذا ما كان ينأى عنه عبد الملك مرتاض بطبيعته الجامحة، الجانحة إلى التميُّز والتَّفرُّد وهو ما تشي به عباراته ولا تخفى على قرَّاء كتبه وأبحاثه.

وما يُضاف إلى رفض هذا المنهج ما يقوم عليه من تجاهلٍ للفروق الفرديَّة والمواهب الشَّخصيَّة عند المبدعين، وردّها - عند التَّحليل النَّقدي - إلى عوامل جبريَّة كالبيئة والعصر والجنس، والذي يؤدِّي بدوره لإقصاء عبقريّات الأدباء وإلغاء التفرُّد الأدبي عند الكتَّاب المتعالين على ظروف بيئاتهم والمتجاوزين لأزمانهم [36] . كما أنَّ مبالغة المنهج التَّاريخي في التَّعميم العلمي، وتجاهل خُصوصيَّة العمل الأدبي، من أكثر ما يُمكن اعتماده في صرف نظر عبد الملك مرتاض عن هذا المنهج إلى سواه، وهو الذي أفنى زهرة شبابه في التَّنظير للنصّ الأدبي، والسَّعي لفهم أسرار تركيبه، والتّأريخ له.

نقد بعض مبادئ البنويَّة :

أمَّا تحوُّل عبد الملك مرتاض عن المنهج البنيوي فقد عبَّر عنه بما يَشِي بنقدِه لبعض مبادئه، إذ تقوم البنويَّة - في أساسها - على رفضها للتَّاريخ الذي يصنعه الإنسان، باعتبارها مرجعيَّةً للكتابة وأصلاً من أُصولها، فيقول نقداً للبنويَّة في رفضها الارتكان إلى سياقات النَّصّ وملابسات إنشائه: « لا عجب أن نجد الكتَّاب البنويّين يعلنون في أكثر من موقف أنَّهم لا يؤمنون بمرجعيَّة الكتابة؛ ويعدُّون المرجعيَّة الاجتماعيَّة للأدب من أساطير الأوَّلين » [37] . ويقول في سياقٍ آخر : « كذلك ألفينا المدرسة البنيويَّة ترفض أهمَّ القيم التي كان النَّقد التَّقليدي ينهض عليها، ومنها رفض التَّاريخ، وفكرة المؤلّف والمناداة بموته، ورفض المرجعيَّة الاجتماعيَّة للإبداع، ثمَّ رفض معنويَّة الألفاظ وعدّ اللّغة مستقلَّة بنفسها، غير مفتقرة إلى سواها » [38] . كما يرفُضُ رَفْضَ البنويَّة لمعنويَّة اللغة ، ويعتبره قُصوراً منهجيّاً فيها، فيقول : « إنَّ المدرسة البنيويَّة ترفض معنويَّة اللغة، بل، ترى ، كما يذهب إلى ذلك رولان بارط، أنَّه من العسير التَّسليم بأنَّ نظام الصُّور والأشياء التي المدلولات فيها تستطيع أن توجد خارج اللغة، وأنَّ عالم المدلولات ليس شيئاً غير عالم اللغة » [39] .

وليس هذا موقف عبد الملك مرتاض وحده، بل كان في نقده هذا مسايراً لأحكام غيره من الباحثين الذين رفضوا ركوب موجة البنويَّة بعد أن تكسَّرت على ساحل المناهج الجديدة، فها هو إبراهيم محمود خليل في كتابه (النَّقد الأدبي الحديث)، ينفي عن البنويَّة صفة العلميَّة، ويقرَّرُ أنَّ فيها إذايةً كبيرة للأدب ونقده، إذ يرى أنَّ البنويَّة شبه علم، فهي تخبرنا برطانةٍ غربيَّة ورسوم بيانيَّة وجداول معقَّدة بأشياء نعرفها مسبقاً، ولذلك فهي ليست عديمة القيمة (ف) حسب، وإنَّما مؤذية لأنَّها تجرّد الأدب ونقده من صفاته الإنسانيَّة [40].

مآخذ المنهج التَّفكيكي :

لم يعتمد عبد الملك مرتاض التَّفكيكيَّة منهجاً مستقلا بذاته، بل جعله رديفاً للمنهج السِّيميائي، وهو ما اتَّضح في عناوين بعض كتبه، وهي :

1 - ألف ليلة وليلة (تحليل **سيمائي تفكيكي** لرواية حمَّال بغداد).

2 - ألف – ياء (دراسة **سيميائيَّة تفكيكيَّة** لقصيدة " أين ليلاي " لمحمَّد العيد).

3 - تحليل الخطاب السَّردي (**معالجة تفكيكيَّة سيميائيَّة** مركَّبة لرواية " زقاق المدق ").

ولعلَّ هذا راجعٌ لما رآه من قُصورِ كلّ منهج عن قيامه باستكناه النَّصّ مستقلاً بأدواته الإجرائيَّة. وعدمُ اتِّضاح الجانب الإجرائي في تحليل الخطاب الأدبي مبرّرٌ آخر في الانتقال عن هذا المنهج إلى سواه، ويكفي أن نعرف أنَّ ترجمة مصطلح (Déconstruction) إلى العربيَّة ، هو في حدّ ذاته محلّ اختلاف بين النقَّاد والمترجمين، حيث ترجم بـ: « التَّفكيك، التَّفكيكيَّة، التَّشريح ،التَّشريحيَّة، التَّقويض، التَّقويضيَّة، نظريَّة التَّقويض، النَّقضيَّة، اللابناء، التَّهديم، التَّحليليَّة البنيويَّة ... » [41] ، ويمكن اعتبار المصطلحات الثَّلاثة الأخيرة في خانة المصطلحات المستهجنة، وهذا لاعتبارات تداوليَّة ومورفولوجيَّة (اللابناء) وإمَّا لاعتبارات دلاليَّة (التَّهديم) ، والتباس (التَّحليليَّة البنيويَّة) بالمنهج البنيوي [42] .

ويُضاف إلى أسباب التَّغيُّر المنهجي الخلفيَّة الأيديولوجيَّة التي قام على أساسها المنهج التَّفكيكي، والتي تُناقض أيديولوجيَّة عبد الملك مرتاض ، إذ يبقى - رغم انفتاحه على الأدوات المنهجيَّة الغربيَّة ومن معينها – ناقداً متمسِّكا بثوابته، ولا يرضى ما يخدشها، وهو المنافح عن بَيضتها، إذ يقوم المنهج التَّفكيكي - في أساسه - على التَّشكيك، وزعزعة كلّ يقين، وهو منهج نقدي خطير يدلُّ على نقض وتفكيك المفاهيم السَّائدة [43] . إذ يلغي المنهج التَّفكيكي المؤلّف، ويجعل منه ناسخاً أو جامعاً لنُصوص قديمة مقولة، ويتجاهل المواهب الأدبيَّة، وينفي العبقريَّة الفرديَّة، ويحطّ من شأن ذاتيَّة الإنسان المبدع [44] . والتَّفكيكيَّة « مشروع يهودي تهديمي عدمي، أو حلقة إضافيَّة في سلسلة تمتدُّ إلى نيتشه وهيدجر وفرويد ...، وهو مشروع يستهدف تقويض السَّائد، دون أن يقدّم البديل » [45] . ولا تقوم التَّفكيكيَّة على أسس إجرائيَّة واضحة فـ« ليس - للتَّفكيك – قواعد أو مبادئ واضحة اتّفق عليها مؤسّسو التَّفكيك . هذا ناهيك عن تعدُّد المصطلحات التَّفكيكيَّة، وهو ما أدَّى إلى غموضها عند القرَّاء » [46] . ولعلَّ مِنَ الإنصاف القول إنَّ « - التَّفكيكيَّة – غير صالحة في النَّبش عن جماليَّات النُّصوص ، وقد تكون مشروعاً نقديّاً مستقبليّاً ، إذا أنصفت الخصوصيَّة الجماليَّة في خطابها النَّقدي » [47].

ثالثاً : أسباب التَّعدُّديَّة المنهجيَّة عند عبد الملك مرتاض في دراسة النَّصّ الأدبي :

أبرز أسباب التَّعدُّديَّة المنهجيَّة عند عبد الملك مرتاض في دراسته للنَّصّ الأدبي ترجع إلى القُصور الذي يعرفه المنهج المتبنَّى حال التَّطبيقِ الإجرائي، بل قد يكون هذا القُصور في الجانب النَّظري أيضاً، ممَّا يحمل النَّاقد على الجمع بين منهجين أو أكثر أثناء التَّحليل، وهذا هو السَّبب الأبرز الذي حمل الكثيرين على القول بوُجوب اعتماد المنهج التَّكاملي، الذي يَسُدُّ فيه كلُّ منهجٍ خلل المنهج الآخر، وذلك بجمع المنهج التَّكامُلي لشتات المناهج والتَّلفيق بينها . ولعلَّ هذا أيضاً ما حمل نعيم اليافي على القول بعدم اعتماد منهج واضح أثناء التَّحليل، فيكون أحسن منهج هو اللامنهج، وهو وجهٌ آخر لتعريف المنهج التَّكاملي. الذي يقوم على أكثر من طريقة في الاستدلال والبرهنة، بما لا يتناقض مع العقل. ولبيان هذا السَّبب في تعدُّدية المنهج عند عبد الملك مرتاض نذكر بعض الإشكالات النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة للنَّقد السِّيميائي، باعتباره أحد أبرز المناهج التي تبنَّاها في دراساته واختارها عنواناً للعديد من كُتبه ...

من الإشكالات النَّظريَّة للنَّقد السِّيميائي :

رغم سعي عبد الملك مرتاض للتَّنظير للمنهج السِّيمائي وتصحيح مصطلحاته، والتَّجريب للمتاح منه، فإنَّ المنهج السِّيميائي يبقى - كغيره من المناهج – قاصراً عن إدراك مقاصد النَّاصّ من نصِّه، ومن أبرز الإشكالات النَّظريَّة التي تواجهها السِّيميائيَّة هي ما أجمله " بشير تاوريريت " بقوله : « إنَّ السِّيميائيَّة باتّجاهاتها المتباينة تبقى مجرَّد اقتراحات أكثر من كونها مجالاً معرفيًّا متميّزاً»[48] . وذلك لاضطراب مفاهيمها، وتبايُن اتِّجاهاتها، وتعدُّد مبادئها، واختلاف أقطابها، فضلاً عن تعدُّد مصطلحاتها وتشابُكها، واختلاف أيديولوجيَّات منظِّريها ... غير أنَّ هذه الانتقادات النَّظريَّة كلّها لم تمنع عبد الملك مرتاض من الانتقال عن هذا المنهج إلى غيره بسهولة، بل رآه فيه المجال الرَّحب ليرتّب مفاهيمه المضطربة، ويصحِّح مصطلحاته المغتربة، ويراجع أيديولوجيَّاته الخربة.

من الإشكالات التَّطبيقيَّة للنَّقد السِّيميائي :

إنَّ لجوء عبد الملك مرتاض إلى استعمال منهج إجرائي آخر إلى جانب المنهج السِّيميائي أحدُ الأدلَّة الواضحة على قصور المنهج السِّيميائي وعجزه - وحده - عن تحليل النُّصوص، ممَّا اضطرَّ عبد الملك مرتاض إلى التَّركيب المنهجي، يظهر في صُورةٍ جليَّة بعناوين كُتبه، التي ورد فيها هذا التَّركيب بالعبارات الآتية: (تحليل **سيميائي تفكيكي** ، معالجة **تفكيكيَّة سيميائيَّة** مركَّبة ، دراسة **سيميائيَّة تفكيكيَّة**)، ويؤكِّد هذا القصور بشير تاوريريت بقوله :« إنَّ هذا التَّضافر بين السِّيميائيَّة والتَّفكيكيَّة في عمليَّة إجرائيَّة واحدة نعدُّه - من دون هوادة - مغالطةً نقديَّة، لأنَّها تكشف عن قصور الحقلين، ويتمظهر في ذلك التَّركيب الاستدعائي بين السِّيمياء والتَّفكيك، فلو كانت السِّيميائيَّة قادرةً على استنباط الرُّوح الجماليَّة للنَّصّ ما كان مثل هذا الاستدعاء » [49] .

كما نجد بين النقَّاد اختلافاً بيّناً على مستوى التَّطبيق للمنهج السِّيميائي، إذ لا توجد آليَّة واحدةٌ متَّفَقٌ عليها سلفاً في نقد النَّصّ الأدبي على ضوء مبادئ هذا المنهج، وذلك لأنَّ « السِّيميائيَّات ليست تيَّاراً واحداً منسجماً، وليست فكرةً معزولة، كما أنَّها ليست نظريَّة جاهزة محدَّدة من خلال مفاهيم موحَّدة وموحِّدة» [50] . ولا تخرُج عن كونها كشفاً واستكشافاً « لعلاقات دلاليَّة غير مرئيَّة من خلال التَّجلِّي المباشر للواقعة. إنَّها تدريب للعين على التقاط الضِّمني والمتواري والمتمنِّع، لا مجرَّد الاكتفاء بتسمية المناطق النصِّيَّة أو التَّعبير عن مكوِّنات المتن » [51] . غير أنَّ إشكالات النَّقد السِّيميائي لا تنبثق كليَّةً من تلك الإجراءات التَّطبيقيَّة « وإنَّما تنبثق أيضاً من قُصُور المفهوم الذي يشغله النَّقد السِّيميائي، لأنَّ الإجراء التَّحليلي ما هو إلاّ معلول أو نتيجة لعلَّة » [52] .

ومن أسباب التَّعدُّديَّة المنهجيَّة أيضاً ما يفرضُه مبدأ التَّلقِّي عند الطَّلَب، ويظهر ذلك في علاقة الطَّالب بأستاذه وتأثُّره به، ممَّا قد يحمله على تبنِّي بعض أفكاره والدَّعوة إليها، فضلاً عن تبنِّي منهجه وتطبيقه إجرائيًا على النُّصوص المختارة ، فقد « كان لتأطير المستشرق الفرنسي " آندري ميكائيل " (André Mickaël) لأطروحته الموسومة بـ: فنون النَّثر الأدبي في الجزائر(1931 –

1954م)، والتي نوقشت بجامعة السُّوربون (1983 م) الدَّورُ البارز في تعرُّف باحثنا بأستاذه عن قرب، والذي دعاه بدوره إلى الاحتكاك بأساتذة فرنسيّين آخرين، والاطّلاع على عطائهم الفكري، وحضور محاضرات الجامعات والمعاهد الفرنسيَّة، وهناك في فرنسا، ابتدأت مرحلة جديدة بأكبر تحوُّل في مسار " عبد الملك مرتاض " النَّقدي ، والمسار النَّقدي الجزائري عموماً ، والذي عاد معبَّأً بأحدث المفاهيم والنَّظريَّات النَّقديَّة والمصطلحيَّة الغربيَّة ، لتكون بذلك ثورة حداثيَّة عارمة في الخطاب النَّقدي الجزائري»[53] . فكان هذا الإشراف أحد دوافع التّأثُّر الذي يُمكن رصده . فيعتبر من بين الأسباب في اختيار منهج معيَّن تزامنه مع اهتمامات الباحث في فترة تاريخيَّة معيَّنة، كاهتمام عبد الملك مرتاض بالمنهج التَّاريخي في مرحلة معيَّنة من مسيرته الأكاديميَّة، تخلَّى فيها عن منهجه السَّابق (المنهج الانطباعي) أو كاد، وذلك ما يُشير إليه وغليسي بقوله : « [والانطباعيَّة] لم تستغرق من مرتاض إلَّا حيّزاً نقديًّا محدوداً، وهذا قبل أن يهتدي إلى المنهج التَّاريخي الذي تزامن مع انشغالاته الأكاديميَّة » [54]. وهكذا كان دأب عبد الملك مرتاض - رحمه الله - في انتقالاته المنهجيَّة خاضعاً لما يستجدّ من المعارف النَّقديَّة، متفاعلاً معها أخذاً وعطاءً، نقداً ومثاقفة ساعياً إلى التَّجديد غير راضٍ بالرُّكون .

ولعلَّ من الأسباب الموضوعيَّة في التَّعدُّديَّة المنهجيَّة ما نجدُه من رغبة عبد الملك مرتاض في مسايرة التطوُّر المنهجي، ورفض التَّقوقع، والاقتصار على المنهج الواحد عند التَّحليل والدِّراسة. ويُمكن أن نُضيف لهذه الأسباب كلِّها التطوُّر الفكري الذي يطال مسيرة الباحث ويحمله على تتبُّع الجديد ورُكوب موجة الوافد من النَّظريَّات والمناهج ممَّا يُحيّن به معارفه ويُصحِّح به مساره ومسيرته.

خاتمة :

حاولنا في هذه الدِّراسة الإجابة عن إشكاليَّتين رئيسيَّتين تتمثَّلان في محاولة معرفة مظاهر التَّغيُّر المنهجيّ في التَّجربة النَّقديَّة لـ عبد الملك مرتاض، والبحث في أسباب التَّعدُّد المنهجيّ عنده، وذلك بتتبُّعٍ تاريخيٍّ لتجربته النَّقديَّة، وخرجنا ببعض النَّتائج التي نوجزها في الآتي :

- مواكبة عبد الملك مرتاض- رحمه الله - لمستجدَّات النَّقد في السَّاحة النَّقديَّة العربيَّة، وتبنّيه لما يراه مناسباً في تحليل ما يختاره من نُصوص.

- سعيُه الدَّائم للإضافة والتَّجديد وعدم الرُّكون لمنهج بعينه .

- المزاوجة والتَّركيب بين أكثر من منهج في الدِّراسة الواحدة كالجمع بين البنويَّة والأسلوبيَّة أو بين السِّيمائيَّة والتَّفكيكيَّة ...

- اتّخاذ المنهج السِّيمائي كأحد أبرز المناهج التي اعتمدها في الكثير من دراساته وأبحاثه لملاءمتها لجميع النُّصوص الأدبيَّة باعتبار اللغة ذاتها ذات بعدٍ سيميائي في الأساس.

- عدم القبول بمسلَّمات غيره فيما يقتضيه أي منهج، سواءٌ على مستوى المصطلحات أو التَّنظير أو الإجراء .

ونُشير في الختام إلى أنَّ عبد الملك مرتاض - رحمه الله - قد تجاوز في ممارساته السِّيميائيَّة الأخيرة تحليل الخطابات، إلى مجالٍ أوسعَ وأرحب استعان فيه بالأنثروبولوجيا، في دراسة الطُّقوس، واللباس، والحليّ، والأمثال الشَّعبيَّة والعادات والتَّقاليد ... وساهم في إثراء السَّاحة النَّقديَّة بزخم من المؤلَّفات والدِّراسات النَّقديَّة التي تشهد بطول نَفَسِه البحثي، واستبساله في الدِّفاع عمَّا يؤمن به ويرتضيه، وسعيه للكمال فيما يبحث عنه من تكامل المناهج وتضافرها. إذ أوضحت نتائج هذه الدِّراسة نجاعة المنهج المركَّب عند عبد الملك مرتاض في تعميق التَّأويل والتَّحليل، ونأيه عن الفهم الأحادي القاصر، وعن السُّقوط في التَّلفيق، كنتيجة لتجربته الطَّويلة في التَّعامل مع النُّصوص، وكاستجابة لما يقتضيه النَّصّ من مرونة في المنهج لاستيعاب عطائيَّته اللامتناهية. والحمد لله ربّ العالمين.

قائمة المراجع:

01 - بنكراد ، (سعيد -) : **السِّيميائيَّات مفاهيمها وتطبيقاتها**، دار الحوار للنَّشر والتَّوزيع، اللاذقيَّة، (سورية) ، (2012 م).

02 - تاوريريت ، (بشير -) : **السِّيميائيَّة في الخطاب النَّقدي المعاصر** ، مجلَّة علامات، مج 14 ، الجزء:54، شوَّال 1425 هـ ، ديسمب ، النَّادي الأدبي الثَّقافي ، جدَّة ، (السَّعوديَّة) ، (2004 م) .

03 - تاوريريت ، (بشير -) : و راجح ، (سامية -) : **التَّفكيكيَّة في الخطاب النَّقدي المعاصر ، (دراسة في الأصول والملامح الإشكاليَّة النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة)** ، دار رسلان ، دمشق ، (سورية) ،(2010 م) .

04 - خليل ، (إبراهيم محمود -) : **النَّقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التَّفكيك**، دار المسيرة للنَّشر والتَّوزيع والطِّباعة، عمَّان، (الأردن)، ط 04 ، (2011 م) .

05 - بوخاتم ، (مولاي علي -) ، **الدَّرس السِّيميائي المغاربي** ، ديوان المطبوعات الجامعيَّة ، (الجزائر) ، (1995 م).

06 - بن زايد ، (عمَّار -) : **النَّقد الأدبي الجزائري الحديث** ، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، (الجزائر) ، (1990 م).

07 - حسن ، (حسين الحاج -) : **النَّقد الأدبي في أثار أعلامه** ، المؤسَّسة الجامعيَّة للدِّراسات والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، (لبنان) ، (1996 م).

08 - ستروك ، (جون -) : **البنيويَّة وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا** ، ترجمة : محمد عصفور ، عالم المعرفة العدد : 206 فبراير ، (الكويت) ، (1996 م) .

09 - صقر ، (أحمد -) : **قراءة في تاريخ الحركة النَّقديَّة في القرن التَّاسع عشر**، كليَّة الآداب ، جامعة الإسكندريَّة (مصر) على صفحة: (ahmedsaker.ahlamotada.net).

10 - فولفجانج ، (إيستر -) : **فعل القراءة ، نظريَّة في الاستجابة الجماليَّة** ، ترجمة : د . عبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثَّقافة ، (1978 م) .

11 - قصّاب، (وليد -) : **مناهج النَّقد الأدبي الحديث – رؤية إسلاميّة** ، دار الفكر، دمشق، (سورية).

12 - مرتاض ، (عبد الملك -) : **القصَّة في الأدب العربي القديم**، دار ومكتبة الشَّركة الجزائريَّة للتَّأليف والتَّرجمة والطِّباعة والتَّوزيع والنَّشر ، (الجزائر) ، (1968 م) .

13 - مرتاض، (عبد الملك -) : **فنون النَّثر الأدبي في الجزائر (1931 م – 1954 م)** ، ديوان المطبوعات الجامعيَّة ، د.ط ، (الجزائر) ، (1983 م) .

14 - مرتاض ، (عبد الملك -) : **ألف ليلةٍ وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمَّال بغداد)** ، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، (الجزائر) ، (1993 م) .

15 - مرتاض ، (عبد الملك -) : **الأمثال الشَّعبيَّة الجزائريَّة (تحليل لمجموعة من الأمثال الزِّراعيَّة والاقتصاديَّة)** ، ديوان المطبوعات الجامعيَّة ، (الجزائر) ، (2007 م).

16 - مرتاض ، (عبد الملك -) : **في نظريَّة النَّقد، (متابعة لأهمّ المدارس النَّقديَّة المعاصرة ورصد لنظريَّاتها)** ، دار هومة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع ، (الجزائر) ، (2010 م) .

17 - مرتاض ، (عبد الملك -) : **في نظريَّة النَّقد** ، دارهومة، (الجزئر) ، (2010 م) .

18 - المسيري ، (عبد الوهَّاب -) : **العالم من منظور غربي** ، دار الهلال ، القاهرة ، (مصر) ، (2001 م) .

19 - نمرة ، (محمَّد -) : **التَّأثيرات الأدبيَّة الغربيَّة في الخطاب النَّقدي عند عبد الملك مرتاض - البنيويَّة أنموذجاً** ، إشراف: د . أحمد عزوز ، مذكِّرة مقدَّمة لنيل شهادة الماجستير (تخصُّص : الدّراسات الأدبيَّة المقارنة في الأدب الجزائري الحديث) ،كليَّة الآداب واللغات ، قسم اللغة العربيَّة وآدابها ، جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف ،(الجزائر) ،(2012 م) .

20 - وغليسي ، (يوسف -) : **النَّقد الجزائري المعاصر من "اللانسونيَّة" إلى "الألسنيَّة"**، إصدارات رابطة الإبداع الثَّقافيَّة، كلّيَّة الآداب واللغات، جامعة قسنطينة، (الجزائر)، (2002 م) .

21 - وغليسي ، (يوسف -) : **الخطاب النَّقدي عند عبد الملك مرتاض (بحث في المنهج وإشكاليَّاته)**، إصدارات رابطة إبداع الثَّقافيَّة،(الجزائر)، (2002 م) .

22 - وغليسي ، (يوسف -) : **مناهج النَّقد الأدبي** ،دار جسور، (الجزائر) ،(2007 م).

23 - وغليسي ، (يوسف -) : **إشكاليَّة المصطلح في الخطاب النَّقدي العربي الجديد** ، الدَّار العربيَّة للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، (لبنان) /(الجزائر)، (2008 م) .

الهوامش

---

* **مرسلي فايزة .**

[1] - *يُنظر : وغليسي ، (يوسف -) : **النَّقد الجزائري المعاصر من "اللانسونيَّة" إلى "الألسنيَّة"** ، (2002 م)، إصدارات رابطة الإبداع الثَّقافيَّة، كلّيَّة الآداب واللغات، جامعة قسنطينة، (الجزائر)، ص : 09 .*

[2] - *يُنظر : وغليسي : **النَّقد الجزائري المعاصر من "اللانسونيَّة" إلى "الألسنيَّة"** ، ص : 191 .*

[3] - ***المرجع السَّابق**، ص : 191 .*

[4] - *مرتاض ، (عبد الملك -) : **في نظريَّة النَّقد**، (2010 م) ، دارهومة، (الجزئر) ، ص 22 .*

[5] - *يُنظر : بن زايد ، (عمَّار -) : **النَّقد الأدبي الجزائري الحديث** ، (1990 م)، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، (الجزائر) ، ص 123 – 124 .*

[6] - *يُنظر : وغليسي ، (يوسف -) : **الخطاب النَّقدي عند عبد الملك مرتاض (بحث في المنهج وإشكاليَّاته)**،(2002 م)، إصدارات رابطة إبداع الثَّقافيَّة،(الجزائر)، ص 97 .*

[7] - *يُنظر : فولفجانج ، (إيستر -) : **فعل القراءة ، نظريَّة في الاستجابة الجماليَّة** ، (1978 م)، ترجمة : د . عبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثَّقافة، ص 03 .*

[8] - *حسن ، (حسين الحاج -) : **النَّقد الأدبي في أثار أعلامه** ، (1996 م) ، المؤسَّسة الجامعيَّة للدِّراسات والنَّشر والتَّوزيع ، بيروت ، (لبنان) ، ط 1 ، ص : 79 .*

[9] - *صقر ، (أحمد -) : **قراءة في تاريخ الحركة النَّقديَّة في القرن التَّاسع عشر**، كليَّة الآداب ، جامعة الإسكندريَّة (مصر) على صفحة : (ahmedsaker.ahlamotada.net).*

[10] - *وغليسي : **النَّقد الجزائري المعاصر من اللانسونيَّة إلى الألسنيَّة** ، مرجع سابق، ص 68 – 69 .*

[11] - *حسن ، (حسين الحاج -) : **المرجع السَّابق**، ص 81 .*

[12] - *وغليسي : **الخطاب النَّقدي عند عبد الملك مرتاض**، مرجع سابق ، ص : 33 .*

[13] - *يُنظر : وغليسي ، (يوسف -) ، **نفس المرجع السَّابق**، ص 33 – 35 .*

[14] - *مرتاض ، (عبد الملك -) : **القصَّة في الأدب العربي القديم**، (1968 م)، دار ومكتبة الشَّركة الجزائريَّة للتَّأليف والتَّرجمة والطِّباعة والتَّوزيع والنَّشر ، (الجزائر) ، ط 1 ، ص : 305 – 307 .*

[15] - ***نفس المرجع السَّابق** ، ص : 136 .*

[16] - ***نفس المرجع**، ص : 100 .*

[17] - *وغليسي : **الخطاب النَّقدي عند عبد الملك مرتاض** ، مرجع سابق ، ص : 37 .*

[18] - *مرتاض ، (عبد الملك -) : **ألف ليلةٍ وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمَّال بغداد)**، (1993 م) ، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، (الجزائر)، د . ط، ص : 11 .*

[19] - *وغليسي : **النَّقد الجزائري المعاصر من اللانسونيَّة إلى الألسنيَّة** ، مرجع سابق ، ص 34 .*

[20] - *وغليسي : **النَّقد الجزائري المعاصر من اللانسونيَّة إلى الألسنيَّة** ، **المرجع السَّابق**، ص : 38 .*

[21] - ***نفس المرجع**، ص 68 – 69 .*

[22] - *مرتاض، (عبد الملك -) : **فنون النَّثر الأدبي في الجزائر (1931 م – 1954 م)** ، (1983 م)، ديوان المطبوعات الجامعيَّة ، د . ط ، (الجزائر)، ص: 02 .*

[23] - ستروك ، (جون -) : **البنيويَّة وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا** ، (1996 م) ، ترجمة : محمد عصفور ، عالم المعرفة العدد : 206 فبراير ، (الكويت) ، ص : 07 .

[24] - يُنظر : وغليسي : **النَّقد الجزائري المعاصر من اللانسونيَّة إلى الألسنيَّة** ، مرجع سابق ، ص 122 . وشريبط ، (أحمد-) : **النَّصّ النَّقدي الجزائري من الانطباعيَّة إلى التَّفكيكيَّة** ، ص 17 .

[25] - مرتاض ، (عبد الملك -) : **في نظريَّة النَّقد ، (متابعة لأهمّ المدارس النَّقديَّة المعاصرة ورصد لنظريَّاتها)**، (2010 م) ، دار هومة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع ، (الجزائر)، ص 192 .

[26] - وغليسي ، (يوسف -) : **مناهج النَّقد الأدبي** ،(2007 م)، دار جسور، (الجزائر)،ص : 76 ..

[27] - مرتاض ، (عبد الملك -) : **الأمثال الشَّعبيَّة الجزائريَّة (تحليل لمجموعة من الأمثال الزِّراعيَّة والاقتصاديَّة)** ، (2007 م) ، ديوان المطبوعات الجامعيَّة ، (الجزائر) ، ص : 111.

[28] - وغليسي : **الخطاب النَّقدي عند عبد الملك مرتاض** ، مرجع سابق، ص : 37 .

[29] - المسيري ، (عبد الوهَّاب -) : **العالم من منظور غربي** ، (2001 م) ، دار الهلال ، القاهرة ، (مصر) ، ص : 13 .

[30] - يُنظر : مرتاض ، (عبد الملك -) : **تحليل النَّصّ الشِّعري : بأيّ إجراء ؟** ، ص 03 .

[31] - يُنظر : بوخاتم ، (مولاي علي -) ، **الدَّرس السِّيميائي المغاربي** ، (1995 م) ، ديوان المطبوعات الجامعيَّة ، (الجزائر)، ص : 72 .

[32] - مرتاض ، (عبد الملك -) : **ألف ليلةٍ وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمَّال بغداد)**، (1993 م) ، ديوان المطبوعات الجامعيَّة ، (الجزائر)، د . ط ، ص : 11 .

[33] - يُنظر : قصّاب، (وليد -) : **مناهج النَّقد الأدبي الحديث - رؤية إسلاميَّة** ، دار الفكر، دمشق، (سورية)، ص : 32 .

[34] - يُنظر : قصّاب : **المرجع السّابق**، ص : 32 .

[35] - وغليسي ، (يوسف -) : **مناهج النَّقد الأدبي** ، ص : 21 .

[36] - يُنظر : قصاب : **المرجع السَّابق** ، ص : 32 .

[37] - مرتاض ، (عبد الملك -) : **في نظريَّة النَّقد** ، مرجع سابق، ص : 216 .

[38] - **نفس المرجع** ، ص : 220 .

[39] - **نفس المرجع** ، ص : 219 .

[40] - خليل ، (إبراهيم محمود -) : **النَّقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التَّفكيك**، (2011 م)، دار المسيرة للنَّشر والتَّوزيع والطِّباعة، عمَّان ، (الأردن)، ط 04 ، ص : 103 .

[41] - وغليسي ، (يوسف -) : **إشكاليَّة المصطلح في الخطاب النَّقدي العربي الجديد** ، (2008 م) ، الدَّار العربيَّة للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، (لبنان) /(الجزائر)، ط1، ص : 350 – 351 .

[42] - وغليسي : **إشكاليَّة المصطلح في الخطاب النَّقدي العربي الجديد** ، ص : 351 .

[43] - يُنظر : قصَّاب ، (وليد -) : **مناهج النَّقد الأدبي** ، مرجع سابق ، ص : 201 .

[44] - يُنظر : قصَّاب : **المرجع السَّابق** ، ص : 211 .

[45] - وغليسي ، (يوسف -) : **النَّقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنيَّة** ، ص : 160 .

[46] - **المرجع السَّابق** ، ص : 160 .

[47] - تاوريريت ، (بشير -) : و راجح ، (سامية -) : **التَّفكيكيَّة في الخطاب النَّقدي المعاصر ، (دراسة في الأصول والملامح الإشكاليَّة النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة)** ،(2010 م)، دار رسلان ، دمشق ، سوريا ، د . ط ، ص : 108 .

[48] - تاوريريت ، (بشير -) : **السِّيميائيَّة في الخطاب النَّقدي المعاصر** ، (2004 م) ، مجلَّة علامات ، النَّادي الأدبي الثَّقافي ، جدَّة ، (السَّعوديَّة) ، مج 14 ، الجزء : 54 ، شوَّال 1425 هـ ، ديسمبر، ص : 193 - 195 .

[49] - **نفس المرجع** ، ص : 197 .

[50] - بنكراد ، (سعيد -) : **السِّيميائيَّات مفاهيمها وتطبيقاتها**، (2012 م)، دار الحوار للنَّشر والتَّوزيع، اللاذقيَّة، (سورية) ،ص : 11- 12 .

[51] - **نفس المرجع** ، ص : 15 .

[52] - تاوريريت : **السِّيميائيَّة في الخطاب النَّقدي المعاصر** ، المرجع السَّابق ، ص : 196 .

[53] - نمرة ، (محمَّد -) : **التَّأثيرات الأدبيَّة الغربيَّة في الخطاب النَّقدي عند عبد الملك مرتاض - البنيويَّة أنموذجاً** ، مرجع سابق ، ص : ج .

[54] - وغليسي : **الخطاب النَّقدي عند عبد الملك مرتاض** ، مرجع سابق ، ص : 37 .